

فضل العربية على الحضارات القديمة

بقلم: عبد الحق فاضل

محاضرة القاها الشاعر والكاتب العراقي الاستاذ عبد الحق فاضل في قاعة الحفلات البلدية بالدار البيضاء، في 25 يناير 1965 استجابة لطلب اللجنة الثقافية لعمالة واقليم الدار البيضاء التابعة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب، ثم تفضل باعادة القاها في كلية الآداب بالرباط في 24 . 2 . 1965 تلبية لدعوة اللجنة الثقافية لمدينة الرباط التابعة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب ودعوة اتحاد كتاب المغرب العربي .

وقد ارتأينا نشرها كما ألقيت من دون حذف ولا تلخيص نظرا للاثر القوي الذي تركته في نفوس المستمعين ورددت أصداؤه الصحف العربية والفرنسية الصادرة بالمغرب .

اللسان العربي

أيها الاخوان والاخوات :

السلام عليكم ..

الاحبار أكبر عددا أو أعلى درجة مما يعرف عنهم عرب الشرق الاوسط . هذا عدا الاسماء العلمية اللامعة ذات الشهرة - لا أقول العربية - بل العالمية .

وكان من جملة هذه المفاجئات السارة أيضا هذا المكتب الدائم - أدامه الله وأدام بركاته - بشقيه المغربي والعربي، أعنى عمله في التعريب للمغرب وعمله في تنسيق التعريبات لجميع أقطار الاعازيب - ولقد أدهشتني وفرة انتساجه ولم يمض على تأسيسه سوى ثلاث سنوات، على حين أن بعض الاقطار العربية لم يتيسر له أن يبلغ هذا المبلغ من الانتاج اللغوي كما وكيفا في عشرات السنين . وفوجئت كذلك أن وجدت أحد الدواوين الحكومية البعيدة عن ميسادين اللغة والثقافة، وهو مكتب المراقبة والتصدير في الدار البيضاء له مصلحة فنية للتعريب يتسع نشاطها لا لتعريب المصطلحات المصلحية اللازمة لاعمال المراقبة والتصدير

ان بلدكم هذا لقيني عند حلولي فيه ببعض المفاجئات، فقد كان الذي شاقني اليكم فقصدتكم من اقاصي الارض ما كنت أسمع من أن بلدكم جميل، وان أهله طيبون، وأن فيه مسحة عربية ما زالت باقية من عز الحضارة الاندلسية، وأن فيه حركة ثقافية وعلماء أفذاذا . ولكنني عندما نزلت دياركم فوجئت بأن وجدت البلد أجمل كثيرا مما كان يخيل لي، وأن فيه من الاكارم الافاضل ما قد تنسل العرب، وان المغاربة لم يحتفظوا بسيما الحضارة الاندلسية فقط بل احتفظوا كذلك في لغتهم وأزيائهم وعاداتهم بما هو من صميم العروبة العاربة . مما ضيعه الكثيرون من اخوانهم في مشارق العسالم العربي على قريهم من الوطن العربيين الاول .. ووجدت أن علماء

واختصاصاتها فقط وانما تعم فواضلها المغرب كله . بل تدعم حركة التعريب ومن ثم التثقيف في الوطن العربي أجمع . وأود أن أزيد هنا كلمة صغيرة أقولها استطرادا ، وهي أن المغرب العربي لما يعرفه جيدا بمختلف وجوهه .. وجمالياته .. أبناء المشرق العربي .

مفاجآت لغوية

أفليس من واجبي الآن ، أيها الاخوان والاخوات على تعبير المغاربة ، وإيتها الاخوات والاخوان على تعبير المشاركة - وتقديم الاناث على الذكور سنة أخذناها عن الغرب ، وهي من باب التعريب أيضا - أفليس من واجبي لقاء هذه المفاجآت الخريبة الكسرية ان ازجى اليكم أنا ابن الخليج ، يا أبناء المحيط ، بضع مفاجآت لغوية أمل أن تسركم ولو قليلا ، كما سرتني مفاجئاتكم كثيرا ؟

وأول مفاجئاتي هذه ، أيها الاخوة والاخوات ، هو تصحيح عنوان محاضرتنا هذه ، فقد ورد في بطاقة الاستدعاء أنه « فضل اللغة العربية على الحضارات القديمة » وأنا الذي ادعيت ذلك ظلما وعدوانا ، ولكنني أستميحك المصدرة الآن معترفا أن الذي أردت إليه حقا والذي هو موضوع محاضرتنا فعلا هو فضل العربية على بني آدم حتى من قبل عهد الحضارات ، وفضل الطفل العربي .. الرضيع العربي .. على لغات البشر ، بل فضل الفروج العربي .. نعم الفروج .. فرخ الدجاجة العربي .. على اللغات الحضارية الراقية .. قديما .. وحديثا .

ولكنني خفت اذا انا صارحتكم بذلك في بطاقة الاستدعاء ان ترتابوا ، والحق معكم ، فتظنوا بي الظنون ، وتفروا مني ومن محاضرتي فزازكم من الاسد .

أما الآن وقد تورطتم بدخول هذه القاعة فما الذي ينعني ايها الاخوان والاخوات من مصارحتكم بالحقيقة .. لا الحقيقة المرة .. بل الحقيقة الحلوة ؟ نعم سأحدثكم عن فضل فروج أجدادكم الاشواوس ، وسأحدثكم عن أعاجيب من أسرار الماضي البعيد .. البعيد .. مما لو جرى على لسان القصاص العالمية الحسنة - شهرزاد - لوصفته على طريقته العذبة بقولها انه لو كتب بالابور .. على أماق البصر .. لكان عمرة لمن اعتبر !

والفضل في هذا لا يعود الى مقدرتي وحذقي ، ولكن

الفضل كل الفضيل للموضوعات التي سيتناولها حديثنا ، لان هذه الموضوعات شائقة مثيرة للدهشة والاستغراب بذاتها ، ولعلها ستثير طائفة كبيرة من أهل الاستغراب .. والاستشراق .

وكلمتي هذه جزء صغير في الواقع ، او لمحبات خاطفات من كتاب انتويت تأليفه بعد استيفاء البحث وارسائه على أسس علمية مكينة ، اذا تيسرت لي المصادر والامكانيات اللازمة لكل بحث وتفرغ . أما الآن والبحث على حاله هذه فلا أستطيع أن أسميه بحثا بالمعنى العلمي ، وانما هو مشروع بحث .. مشروع محاضرة .

طريقة في التنقيب

كان المقدار الذي يعرفه المؤرخون قليلا جدا عن أقطاب التاريخ القديم وحضاراته ، وعمما قبل التاريخ من الحضارات . ثم بدأ التنقيب العلمي المنظم فاحتفرت أطلال ونبشت قبور وقصور . واستخرجت دفائن ، واذا بأسرار الماضي البعيد تسفر عن وجهها شيئا فشيئا ، واذا بالمتقنين يكشفون بين حين وحين مصابيح وهاجة من الآثار تضيء زاوية من المجهول هنا وقبوا من المخبات هناك .

وكان ان وجدت نفسي قبل بضع سنين منهمكا أنا أيضا في الحفر والنبس عن حقائق الماضي ، في بلاد العرب وفي غيرها من أقطار الارض . جعلت أنقب في المكان والزمان ، من (نيبال) في أحضان جبال هملايا الى (ايسلندة) في المحيط المتجد الشمالي .. ومن فجر التاريخ ، بل من دامس ليل التاريخ ، الى يومنا هذا . أجل ، فعلت كل ذلك بمفردي ودون أن أبارح غرفتي أو أزايل مكتبي . ذلك بأن طريقي في التنقيب هي نيش المعاجم اللغوية بحثا عن العلاقات البشرية . وصرت أجد بين حين وآخر لقية أنفس من لؤلؤة .. توميء الى شيء مجهول ، على أن افتش عنه واستجلي غوامضه .

وجدت في تنقيباتي الكثير من الإلفاظ المشتركة بين العربية واللاتينية أول الامر . وتبادر الى ذهني أن العربية هي المقتبسة من اللاتينية بوجه عام ، وان اللاتينية لم تستفد من العربية الا كلمات قليلة مثل (الجمال Camelus) و (الفيل elephas) وامثالهما من الإلفاظ الصحراوية او الشرق البعيد التي توسطت العربية في نقلها الى ديار الغرب ، أما كلمة سرية جلييلة الشأن

وهاجا - مثل ذيل الكوكب المذنب - طوله خمسة وخمسون قرنا ، على الأقل .

ان تحرياتي لم تكن كافية ولا منظمة لكثرة تنقل في الأمصار ، وبعدي عن المكتبات والمراجع ، وحاجتي الى الاستقرار الذي أمل أن أجد كفايتي منه هنا . الا أن حفرياتى بالرغم من هذا كله عادت على بحصيلة كبيرة من الالفاظ العربية موزعة على الامم القديمة في اوربا وآسيا . واود هنا أن أنبه الى نقطة مهمة وهي أني لا أقصد ما استفادته لغات الشرق والغرب من العربية في عصور الازدهار الاسلامية ، فهذه الفرائد والالفاظ معروفة يعلم المعجميون الاجانب أنها من العربية ، وقد نقلها ونشرها الكثيرون من اللغويين المحدثين العرب ، وانما أنا أبحث عن الالفاظ التي اقتبستها اللغات الاجنبية من العربية قبل الاسلام ، بل قبل التاريخ ، ولا تدرى المعاجم الاجنبية أن أصلها عربي .

العطاء

ومن حقكم أن تسألوني : ما الدليل على أن اللغات الاجنبية هي المقتبسة ؟ ألا يجوز أن تكون اللغة العربية هي التي استفادت هذه الالفاظ المشتركة من هذه اللغات الاجنبية ؟

لا يتسع بنا المقام هنا لاستعراض الكثير من الالفاظ المشتركة بين اللغات وتحليل معانيها واشتقاقاتها وردّها الى أصولها ، فان هذا من البحوث الجازمة المصنّعة . مكانها الكتب والمجلات .. على حين أن المحاضرات بطبيعتها ينبغي أن تكون خفيفة سائفة . فانا بين نازين : ناز الجفاف الذي تتسم به البحوث اللغوية كبعضنا هذا من جهة وناز الطراوة والطلاوة التي تتطلبها طبيعة المحاضرات من جهة أخرى . فلنخفف اذن وناطف على قدر الامكان . ولنأخذ كلمة واحدة من الكلمات المشتركة وهي (الاداء) او (التادية) من فعل (أدى) . وهي في الفارسية (داد) أى أعطى .. وفي اللاتينية addo

مثل (القلم) التي وجدت في اللاتينية بصيغة calamus فلم أتردد في الزعم بأن العربية هي التي اقتبستها من اللاتينية .. والسبب واضح ، وهو أن العربية حديثة عهد بالنسبة الى اللاتينية اولا ، وان اللاتين الرومان كانوا هم أهل الحضارة حين كان العرب أمة بدائة وبدائية ثانياً ، ثم علمت بعد ذلك أن أصل الكلمة اغريقي - kalamos - وان اللغويين كافة يرون أن العرب البداة هم الذين اقتبسوا هذه الكلمة الثقافية الشريفة وما زالوا يتوهمون ذلك حتى اليوم .

ولقد أدهشني أن وجدت في أثناء حفرياتى أن لغة العربية علاقات متشابكة مع لغات بنى الانسان فسي التاريخ القديم ، أعني الاغريقية واللاتينية والفارسية : ولكنى تذكرت أن لغة الاكديين ، أى البابليين ، كانت اللغة العربية ، عرّية ذلك الزمان والمكان بطبيعة الحال ، اى قبل أكثر من (5.500) عام ، في أرض الرافدين .. وان كلمة (بابل) نفسها عربية لان أصلها البابلي هو (باب ايلو) أى باب الاله .. ووجدت مثلا أن نظرية المثلث القائم الزاوية المنسوبة الى اقليدس قد اكتشفت في أرض الرافدين مكتوبة بالعربية البابلية على رقيم من الطين قبل عهد اقليدس بسبعة عشر قرنا ، أى منذ أربعة آلاف سنة . وتذكرت أن شريعة حمورابي البابلي العربي أقدم من حضارات الاغريق واللاتين والفرس جميعا . (I)

هنا تغير وجه المسألة ، بل انقلب عقبا على رأس . وأخذ يبدو لي أن الاصح هو أن هؤلاء ، أعني الاغريق واللاتين والفرس ، هم الذين اقتبسوا من أنوار اللغات : البابلية والآشورية والحميرية والفنيقية والآرامية .. التي حملت مشعل الحضارة بالتعاقب ، مجتمعة ومنفردة . واذا باللغة العربية ليست باللغة الحديثة ولا البدائية ، وانما هي لغة علم وثقافة منذ عهد الاكديين ، وبكلمة أخرى ان العربية أعرق لغة حية على وجه الارض ، فما من لغة غير العربية اليوم تسحب وراها ماضيا ثقافيا

(I) وجدوا في اطلال بلدة أشننة Ashnunnah بالعراق قانونا أقدم من شريعة حمورابي بمئتي سنة . ومن مزايا قانون أشننة هذا أولا : انه يذكر أقدم مظهر معروف للعملة وهو وزن معين باسم (شقل) من الفضة - أي الثقل - شبيه بما سماه العرب (الثقال) . ثانيا : تحديد أسعار الضرورى من السلع للحياة العامة من معاش وصناعة ونحوها .

معكم . انه اعتراض معقول ، أنا الذى وجهته الى نفسى فى الحقيقة قبل أن يوجهه الى أحد . وأنتم شهودى على ذلك . ولكنى مصر مع هذا على أن كلمات العطاء هذه الموزعة على عدة لغات أصلها عربى قح ، لاني وجدت النواة الأولى التى انبثقت واثمرت و (أعطت) ثمارها الى أهل الارض شرقا وغربا ..

اليد وبناتها

وجدتها ايها الاخوة والاخوات ، فى العربية . انها كلمة صغيرة من حرفين اثنين هما الياء .. والدادل . نعم ، انها (اليد) ، هذا المصنوع المهم من جسم الانسان . لقد أكثر العرب من اشتقاق الافعال والاصناف من أسماء الاعضاء . فمن (الوجه) اشتقوا المواجهة والاتجاه والجهة والتوجيه والوجاهة والجاه .. الى آخر ما هناك ومن (الظهر) اشتقوا الظهور والمظهر والظاهر والظهير والنظائر والتظاهرات والمظاهرة .. الى آخر ما هناك . فلا عجب اذن أن اشتقوا من (اليد) فعل (أيد تأييدا) بمعنى المساعدة ، والمساعدة أيضا من (الساعد) بمعنى المعاونة وهذه أيضا من (العضد) بمعنى المكاتفة ، وهذه أيضا من (الكتف) بمعنى المؤازرة ، وهذه أيضا من (الآزر) وهو (الظهر) الذى تحدثنا عنه توا .

كذلك صاغ العرب من (اليد) فعل (ودى يدى وديا ودية) بمعنى أعطى ، والدية هى التعويض يدفع عن دم القتيل كما هو معلوم . كذلك صاغوا فعل (أدى) بمعنى أعطى باليد . ثم انهم فكروا ادغام الـ دال المشددة فى (أدى) بادخال الهاء مرة فقالوا (أهدى) ومنها (الهدية) ، وبادخال النون مرة فقالوا (أندى) بمعنى أعطى وأكثر العطاء ، ومنها (الندى) أى السخاء . و (أندى) هذه تطورت فصارت (أنطى) وأنطى صارت (اعطى) .. ثم أتى .. ثم أتى .

فهل من شك بعد هذا .. بعد كل هذا .. فى أن أصل الكلمة عربى صميم ؟ اننا نرى شجرة النسب هنا كاملة حتى آدم العطاء : اليد . أتسى بنت أتى .. بنت أعطى .. بنت أنطى (I) بنت أندى .. بنت أدى .. بنت اليد .

و dono و datio ومنها فى الإيطالية dato ومن صورها فى الفرنسية donner و donation و date وللکلمة فى كل من هذه اللغات اشتقاقات أخرى . ولها فى الانكليزية أيضا بعض الصور منها الكلمتان الفرنسيتان الاخيرتان . أعنى date و donation

فاية واحدة من هذه اللغات الست هى (المعطية) الأولى لهذه الكلمات الدالة على (العطاء) ؟

النظرية الراجحة هى أن اللغات الاوربية أصلها آرى هندى ، لذلك سموها اللغات (الهندية - الاوربية) . فاذا أخذنا بهذه النظرية الشائعة لاحت الكلمة آرية الاصل ، انتقلت من الشرق الى اوربا ، ولعلها مرت فى طريق انتقالها ببعض البلاد العربية فتخلفت فضيلة منها للعرب . ونحن لا نريد أن ننكر المادة الآرية فى اللغات الاوربية ولا الدماء الآرية فى شرايين الاوربيين . ولكن حفرىاتى اللغوية كشفت لى ما للعربية من دور خطير فى هذه اللغات الاوربية . بل ما للدم العربى من قسط كبير فى شرايين الاوربيين وأوردتهم ، وما للافكار العربية من تفاعل شديد فى رؤوسهم وفى نفوسهم .

اذا وجدنا كلمة مشتركة فى بضع لغات فانما نستطيع أن نعرف اللغة الام منهن باحدى طريقتين فيما أظن . اما أن نعرف فى آية واحدة من هذه اللغات كانت الكلمة أقدم عهدا ، واما ان نجد فى احدى هذه اللغات الجذر البدائى الاصيل الذى نشأت منه الكلمة . أما من حيث القدم فقد وردت الكلمة فى العربية الاكدية وهى (ندانو) بمعنى أعطى أيضا .

ويبدو لى أن هذا لا يكفى لاقتناعكم . ولا سيما أن فيكم من أجلة العلماء من لا يقنعه الا البرهان الحاسم ، وكانى ببعضكم يقول : ومن يضمن لنا أن الاكدية ليست هى المقتبسة ؟ فان كون الاكدية أقدم من هذه اللغات فى الحضارة لا يدل على أنها أقدم منها فى الوجود ، كما أن كلمة العطاء ليست من الكلمات الحضارية الراقية التى لا تعرفها الامم المتخلفة لنقول ان الاكديين هم الذين اخترعوها فنقلها عنهم الآخرون . نعم ، الحق

(I) هذا نقوله خلافا للقاعدة المشهورة التى تزعم أن (أنطى) لغة متفرعة من (اعطى) نطق بها بعض العرب كسعد وهذيل .. وخلافا لما يقوله بعض المحدثين مصححين لخط الاقدمين من أن (اعطى) من (أتى) . فالذى نراه أن العكس هو الصحيح فى كلتا الحالتين .

والسؤال الآن هو كيف استعجمت هاته اللفظيات
اليعربيات ؟

ان فعل الامر من (ودي) هو (د) كما تعلم . مثل (ق)
من (وقى) ، و (ع) من (وعى) . وفعل الامر (د) هذا هو
الذى اقتبسهُ الفرس ، فهو نفسه بنفس اللفظ والمعنى
فعل الامر عندهم أيضا . ومنه صاغوا الماضى (داد)
والمصدر (دائن) .

ومن فعل (أيد) تسرب الى الإنكليزية والفرنسية فعل
aid و aider بنفس المعنى العربى ، اى
المساعدة .

كذلك تناول اللاتين فعل (أدى) فنطقوه على طريقتهم
addo بنفس المعنى . ومن فعل (ندانو) فى الاكديّة
صاغوا فعل dono بمعنى (أهدى) . وعن اللاتينية
أخذت اللغات الأوروبية الحديثة وزادت فى التوليد
والاشتقاق .

وإذا بهذه الكلمة الصغيرة - اليد - تفرخ تفرخ
الدجاجة ، وتوزع هباتها على العالمين ، منذ السوف
السنين . ومن الطرائف ان كلمة data وهى تعنى
(العطايا) باللاتينية وكثير من اللغات الأوروبية ، قد
ترجمها العرب المحدثون (المعطيات) . وما هى
الأوروبية ترجع بنسبها عن طريق لاتينية الى (اليد) ،
وما هى نظيرتها (المعطيات) الآسيوية ترجع بنسبها عن
طريق عربية الى (اليد) أيضا ، وقد قرنهما لترجمسون
على عهدنا هذا . فسبحان من يجمع الشمل بعد شتات
الوف السنين .

والقلم وما يسطرون

ومن المناسب هنا أن نلتفت التفاتة سريعة الى (القلم)
الذى هو kalamos فى الإغريقية و calamus
فى اللاتينية ، لتطمئنوا على مصيره ، قبل الخوض فى
شؤون أخرى . انى أعلن لكم بصراحة أنه عريق النسب
فى العروبة ، وأنه ينتمى الى أسرة عربية ضخمة قس
مثلها فى اللغات ، وأحسبها تربو على (500) نفس .

ان (القلم) اولا مشتق من فعل (قلم قلما) مثل (قطع
قطعا) وزنا ومعنى . ومثلها (جلم جلما) تعنى قطع أو
حلق . ولها أخوات : (جل ، جلع ، جله ، جلف) . وفعل
(قلم) أيضا له أخوات : قلف ، قلخ ، قلع ..

وحرف اللام فى فعل (قلم) مبدل من الطاء فى (قلم)
والصاد فى (قصم) والضاد فى (قضم) .. الى آخر ما
هنالك .

وهذه كلها مع كثير غيرها ترجع الى الام الاولى (قط)
وهى الام الحوائية ليشات الافعال الدالة على القطع
واشبهامه . أما فى اللغتين الأوربيتين فنجد الكلمة فى
المعجم يتيمة ، لا أهل لها ولا أقارب .

ثانياً ان القلم يعنى القصب فى اللغات الثلاث .
وصياغة كلمة تعنى القصب من فعل ماضى يعنى القطع
ليس بدعا فى اللغة العربية . فان كلمة (القصب) أيضا
صيغت بنفس الطريقة من الفعل الماضى (قصب) الذى
يعنى القطع أيضا . فالظاهر أن القوم الذين صاغوا اسم
(القلم) من الفعل الماضى هم القوم الذين صاغوا
(القصب) بنفس الاسلوب : أى العرب ، وبما قبيل
بذاته من العرب فى كلتا الحالتين .

وثالثة تحبونها .. هى أن الكلمة kalamos
calamus ليس لها فى هاتين اللغتين الحضاريتين
الراقيتين الأوربيتين الا معناها البدائى : القصب ..
القصب فقط . وانما اكتسبت معناها الحضارى الثقافى
فصارت تعنى آلة الكتابة فى العربية .. فى العروبيه
فقط . ذلك ان العرب لما بدأوا يستعملون البراع - أى
القصب أيضا - للكتابة اختاروا احدى المترادفات (القلم)
للدلالة على هذا القصب الذى به يسطرون .

ارجعوا الى معاجم اللغات الثلاث لتتأكدوا . ارجعوا
الى المعجم العربى وحده على الاقل لتروا ان (القلم) يعنى
القصب الذى يرى رأسه اعدادا للكتابة . فاما قبل بره
فاسمه القصب .

من ثمار الحفريات

هذا قليل جدا من كثير جدا من مكاسبنا فى الحفريات
المعجبية . واليكم نماذج قليلة أخرى عن اللغات الأوروبية
الثلاث : الإغريقية واللاتينية والانكليزية :

هاكم من الإغريقية أولا :

sema أى العلامة ، وأصلها العربى : السمة والسيماء ،
والسومة أيضا .

muthos وأصلها العربى المثلة والمثلة ، ومعناها فى
كلتا اللغتين الإغريقية والعربية هو : ما يروى للعبارة

that	من : ذاك
cut	من : قطع ، أى قطع .
earth	من : أرض
tall	من : الطول بمعنى طويل .
wine	(نبيد) من : وين (العنب الاسود) .

الاصيل اللغوى المشترك

وانى لفى نشوتى اتخط بين المعاجم ، فرحا بما اكتشف من نفاثس التحف اللغوية التى تعزز هذه الفكرة عندى وتزيدها رسوخا فى ذهنى - أعنى فكرة فضل العربية على اللغات الاوربية - واذا بعقبة كالجبل تتصب امامى ذات يوم لتقلب الاوضاع وتذهب بكل جهودى أدراج الرياح الاربع . وذلك انى وجدت فى احدى مطالعاتى ان بعض المستشرقين قد لاحظوا الشبه ، لا بين العربية واللغات الاوربية وحسب ، بل بين الساميات والآريات كافة ومنها أمهرن السنسكريتية - أى الهندية - القديمة ، بل ان منهم من طابقوا جميع الكلمات الاصلية فى اللغات السامية مع نظيراتها فى اللغات الآرية فوجدوا ان جذورها الثنائية مشتركة بين الطائفتين ، أما الكلمات التى لم يجدوا لها جذرا ثنائيا مشتركا فقد أوجدوا لها جذرا ملاما افترضوا انه كان موجودا فى غابر الزمان ثم اندثر .

والمقصود بالجذور الثنائية للكلمة هو ان الكثيرين من علماء اللغة يعتقدون ان اصل الكلمات كان اول الامر يتألف من حرفين تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ثم زيدت فى كل لغة حروف أخرى بمرور الزمن .

وقد اختلفت آراء المستشرقين فى تحليل هذه الظاهرة اللغوية ، أى ظاهرة التشابه بين اصول الالفاظ السامية والآرية ، فبعضهم استنتج ان الآريين والساميين كانوا يتكلمون لغة واحدة بادت منذ زمن سحيق بعد ان انشعبت شعبتين . وبعضهم قال ان الاصل البشرى الذى انحدر منه الساميون والآريون كان يتكلم لغة بدائية قديمة فلما انسلخت هاتان الطائفتان سلكت كل واحدة منهما طريقها فى تطوير لغتها ، وبقيت اثاره من اللغة القديمة الام تظهر فى هذه الجذور الثنائية . ولكن

من أخبار الاولين أو أساطيرهم . ومنها mythology فى اللغات الاوربية ، أى (علم الاساطير) . ويمكننا فيما أظن ان نسميه فى العربية (علم المثالات) .. اذا سمح لنا المكتب الدائم للتعريب . وأود هنا أن أبشركم سلفا بأن mythology هى ايضا عربية مثلكم ، وسنعود اليها حين ياتى دورها .

historia أى الخرافة . وأصلها العربى : أسطورة ، وهى فى العربية من الصطر أى الكتابة . ومنها فى الانكليزية history بمعنى التاريخ ، وفى الفرنسية histoire بمعنى التاريخ أو الحكاية . aster و astron أى النجم . والصفة الاولى aster من اسم (عشتار) الالهة البابلية التى تعنى كوكب الزهرة ، والصفة الثانية astron يظهر انها من اسم (عشتاروت) كما ينطقها انفيقيسون وهى تعنى النجم بوجه عام لدى الاغريق . وهى كذلك فى اللاتينية ، وتنطق astrum . ومنها صيغ اسم علم الفلك : astrologia بالاغريقية واللاتينية و astronomie, astronomy بالانكليزية والفرنسية . ولو أننا صغنا اسم علم الفلك فى العربية على هذه الطريقة من اسم (عشتار) لقلنا ان astronomy هو (العشتر) ! (I)

techné أى الفن . ومنه technology فى اللغات الاوربية الحديثة . وأصلها العربى (التقن) بمعنى الملكة والجملة . ومنه قالت العرب وان الفصاحة من تقته أى من طبعه .

نكتفى بهذه الخمس الكلمات من الاغريقية ، واليكم خمسا أخرى من اللاتينية .

solidus	وعريبتها : الصلب والصلد والصلود .
capesso	وعريبتها : قبض .
tabum	وعريبتها : طاعون .
genius	وعريبتها : جنى .
materia	وعريبتها : مادة .

وهذه خمس أخرى من الانكليزية :

(I) اسم عشتار ما زالت منه بقية فى لغة نيبال ، فقد اندرس منه النصف الاول وبقي اسم آلهة الحب والجمال عندهم (تارا) .

أولا قدم الحضارات العربية من أكديسة وآشورية وحميرية وفتيقية وأرمية .. وثانيا ان أصول هذه الالفاظ موجودة كلها مع تفرعاتها فى العربية ، بينما هى فى هاتين اللغتين الاوربيتين فروع بلا أصول .. مما لا يدع لنا مجالا للريب فى حقيقة نسبها . ولولا ضيق المجال لايتناكم من الامثلة الكثيرة بما يكفى لاقناعكم .. واملا لكم .

اللغة الام

بعد أن اطمأن بالناس على هذه الناحية أى فضل العربية فى العهود الحضارية نعود الى التساؤل عن هذا الشبه الآخر بين جذور الالفاظ البدائية فى العربية والآريات ومنها السنسكريتية - الهندية - هذه الظاهرة اللغوية العجيبة ما معناها ؟ وكيف نفسرها ؟

سألت نفسى : هل التقت العربية بالهندية ؟ فى أى مكان ؟

هل العرب أصلهم هنود ؟ هل الهنود أصلهم عرب ؟ هل هاجر أحد الطرفين الى بلاد الآخر فى الماضى السحيق ؟ فى أى زمان ؟ هذا هو السؤال الآن ، فى أى زمان .. لا فى أى مكان فقط .

أجل ، لا بد هناك من هجرة .. فى زمان .. من مكان الى مكان . ثلاثة ألفاظ : هجرة ، زمان ، مكان .

أيها الاخوان والاخوات ، لقد انحلت المشكلة . مكان المسرحية أو المأساة هو الجزيرة العربية . وزمانها قبل نحو واحد عشر الف سنة . وخانتها هجرة ، نعم هجرة مروعة .

وجدت المفتاح فى حقيقة تاريخية معروفة ، كثيرا ما مرنا بها وتحدثنا فى شأنها دون أن يخطر لنا أن نتساءل عن نتائجها اللغوية العظيمة .

من المعلوم أن الجزيرة العربية كانت فى الماضى البعيد غابة لفاء كغابات الهند وأواسط افريقيا ، تخترقها انهار عديدة كبيرة وصغيرة ، وتغادىها أمطار غزيرة ، فكانت كثيرة السكان وافرة الثمار والحيوان . وكان هذا فى زمان كان الثلج فيه يغطى شمالى اوربا فلا يترك فيها فرجة لمعيشة ذى روح من انسان أو حيوان . فلما ذاب ذلك الدثار الزمهريرى من الثلج عن اوربا فاسمرت ارضها لترى وجه الشمس كانت

أكثر علماء اللغة ينكرون المسألة من أساسها ويرفضون فكرة انتماء هاتين المجموعتين من اللغات الى أصل واحد بحجة أن النظرية غير علمية لانها افتراضية ولان أدلتها غير قاطعة ، ومن ثم كان الاخذ بها ضربا من العبث .

والآن ما موقفنا نحن ، اخوانى أخواتى ، من هذه المغضلة الجديدة ؟ هل تصدق هذه النظرية فنقول ان الشبه بين العربية والآريات يرجع الى الاساس اللغوى الاول الذى لا نعرف عنه شيئا فلا يبقى فضل للعربية على غيرها وتغدو كل مساعينا فى الحفر والتنقيب هباء منشورا ؟ أم هل ننضم الى خصوم النظرية من علماء اللغة ونهمل هذه الظاهرة الصريحة التى لا يمكن انكارها مهما تناقض بعضهم عنها وعن النتائج المترتبة عليها ؟

لا هذا ولا ذاك .. فنظيرتنا القائلة بفضل العربية على الاوربيات صحيحة ، ونظيرتهم القائلة برجوع اللطائفتين الى أصل واحد صحيحة ايضا . فكيف كان ذلك ؟

اليكم البيان :

اذا أمعنا النظر فى الالفاظ المشتركة نجدها تتألف من صنفين متميزين ، أولهما الكلمات البدائية كأسماء الحيوان وأعضاء البدن وما الى ذلك . وثانيهما الالفاظ الحضارية الراقية .

فلنعاود الآن ذكر هذه الالفاظ الحضارية التى مرنا بها منذ قليل :

historia أى الاسطورة ، muthos أى المثلة ، techné أى التقن ، و astrologia أى علم الفلك ، وهذه الالفاظ موجودة فى الاغريقية واللاتينية معا . ولنصف اليها alphabeta أى الالفباء التى نعلم جميعا أن الاغريق اقتبسوها من العرب الفتيقيين . فهذه تعابير حضارية راقية لا يمكن اعتبارها من الالفاظ البدائية ، لا من حيث القيمة اللغوية ولا من حيث الرقى المعنوى .

وعلى هذا لا يمكن أن تكون هذه الالفاظ الحضارية المشتركة بقية أثرية من لغة قديمة عفى عليها الزمان . ولا أجد حلا للمشكلة الا أن نعترف بفضل العربية على هاتين اللغتين وفضل العرب على هاتين الامتين المتحضرتين فى اوربا فى العصور القديمة . والدليل كما قلنا هو

هذه النعمة الاوربية والانسانية الكبرى كإثارة على الجزيرة العربية ، لأن ذلك سبب تغير اتجاهات الرياح فاذا بالسحب المطارة التي كانت تغدق بركاتها على العرب تتحول الى اوربا ، واذا بتلك الجنة الفيحاء تصوح تحت أشعة الشمس التي أصبحت نارا تلتظي على الجزيرة العربية وبردا وسلاما على أوربا .. واذا بالغابة تصبح الصحراء القاحلة المحترقة التي تعرفون .

فما ذا كانت النتيجة ؟ ما ذا يفعل الملايين من أبناء الجزيرة العربية الذين اعتادوا العيش الرخس الهنيء في تلك الجنة المصوحة ؟ النتيجة الطبيعية انهم صاروا ينزحون عنها بسرعة تتناسب مع سرعة انتشار الجفاف والقطط فيها . فلا بد ان منهم من هاجر شمالا الى الشام والعراق ، وان منهم من هاجر مشرقا الى ايران وما وراءها ، ومنهم من هاجر مغربا الى مصر وما وراءها ، ومنهم من عبر البحر المتوسط والبر الاناضولى الى أوربا .

ويظهر أن بعضهم هاجر الى الهند . ولا نعلم الاحوال الارضانية (أعنى الجيولوجية) في تلك الأيام ، فلعلها كانت أكثر مساعدة على السفر الى الهند مما هي عليه اليوم . ومهما يكن فان عبور الخليج العربي لم يكن بالامر العسير ، ولا سيما من أضيق نقاطه عند مضيق هرمز .

ولئن كان الاوربيون قد ساروا في الاصل من الهند حتى بلغوا السويد والنرويج وايسلندة فان هجرة العرب الى الهند ملاحه عبر الخليج العربي او مسيرة عبر بلاد فارس أمر يفدو طبيعيا هينا لا غرابة فيه . ومهما يكن فان اللغة الفارسية فرع من السنسكريتية ، فاذا استطاعت السنسكريتية أن تاتي من الهند الى ايران ففي استطاعة العربية ايضا أن تقطع نفس المسافة من ايران الى الهند . هذا الى أن وطن السنسكريتية الاول غير معروف بالضبط هل هو الهند أم غيرها . وأرجح ، بناء على مقتضيات نظريتنا في الهجرة العربية ، أن موطن الآرية الاولى بصفتها العربية الاولى قد كان في موضع من المنطقة التي تجمع بين ايران وافغان وباكستان . ومن هناك توزعت فيما بعد . وايران هي المحطة الاولى على كل حال .

ولا بد أن العرب كانوا يومئذ ، كما كانوا أبدا ، على جانب عظيم من الحيوية .. العدد القليل منهم يملا

المكان الفسيح ويفرهم ، كالذي رأينا في شمال افريقيا مثلا على العهد الاسلامي . وكان للفتهم من الحيوية ما كان لأصحابها . ويبدو انهم استقروا وتولد لهم العيش في شبه القارة الهندية ، او قريبا منها ، بحيث أن لغتهم التي يظهر أنها كانت على الاغلب في مرحلتها الثنائية عهدئذ طغت على اللغة او اللغات المحلية التي لعلها كانت ضعيفة جدا بدائية جدا . بل لعلهم نزلوا أرضا خالية نموا وترعرعوا فيها فكانوا أمة وحدهم أول الامر لهم لغتهم وحدها .. ثم كثروا وانتشروا .

وهذا ، اخواني اخواتي ، هو التفسير الوحيد الذي تراهي لي في ظلمات التاريخ لهذه الظاهرة اللغوية ، ظاهرة تشابه الالفاظ السنسكريتية في جذورها الثنائية مع الالفاظ العربية .

كون الجزيرة العربية جنة غنا، قبل أحد عشر الف سنة حقيقة تاريخية لا ينكرها أحد من العلماء . وتحولها الى صحراء مجدبة قاحلة حقيقة تاريخية جغرافية لا يبارى فيها أحد من العلماء ولا الجهلاء . وأما أن الجذب يسبب الهجرة وخاصة في الجزيرة العربية فحقيقة تاريخية جغرافية اجتماعية اقتصادية تالفة تكررت مرارا ، لا على اثر انكسار سد مأرب وحسب ولكن في مناسبات كثيرة أخرى . كلما أناخ على الجزيرة العربية بلاء من قحط أو حرب ، أي كلما عصرتها الظروف خرجت منها موجة مهاجرة كما يخرج معجون الاسنان من الانبوبة عندما تعصرها بأصبعيك .

ان المسألة ، ايها الاخوة والاخوات ، ليست جوازية ، بل وجوبية . أعني لا بد ان الهجرة من الجزيرة العربية قد وقعت ، ولا بد أن وقوعها ترك آثاره اللغوية المبينة . وهذا نفسه هو تفسير الشبه بين اللغة العربية واللغات البربرية في شمال افريقيا مثلا .

الجنود الصوتية

ولكني مع هذا ، أجل مع كل هذا ، لا أكتم عنكم أني اعترضت على نفسي في هذا الاستنتاج الخطير ، وقلت لنفسي : افترض يا صاح ، أن هجرة الاعارب الى الهند او غيرها من الاصقاع وزرع لغتهم فيها لا يبدو أن يكون وجها من وجوه الاحتمال ، ان لم يكن لدينا برهان يفنده فليس لدينا برهان يؤيده . والبحث

العلمي لا يبيح لنا بنسب الحقائق وخاصة مثل هذه الحقيقة الضخمة ، على الاحتمالات والافتراضات ، محابة لفكرة قبلية غازية أو بعدية واهية ، ولا اندفاعا وراء عاطفة وطنية او عصبية قومية . وانما قصارنا في مثل هذه الحال أن نقول ان الامر يحتمل أن يكون كذلك ونترك تمييزه للزمن وللناس . فلنفترض كذلك اذن أنه يحتمل أن يكون العرب هم الذين اقتبسوا لغتهم من الآرية الاولى في ظروف تاريخية غامضة لا علم لنا بها .

ولكن ما العمل وقد انتصب أمامي دليان كبيران يؤيدان فضل العربية بالرغم من اعتراضاتي ؟

أما الدليل الاول فهو أننا في العربية وحدها نجد الأصول التي نشأت منها الكلمات المشتركة بين العربية والآريات على نحو ما رأينا في الالفاظ الدالة على العطاء وكيفية انبثاقها من (اليد) . بل أكثر من هذا أننا نجد في العربية النبرة الصوتية التي نبتت منها الكلمة منذ يوم ولادتها . اليكم مثلا فعل (ف) الذي يحكى صوت أجنحة العصفور عند فزازه . وما زالوا في العراق يقولون في وصف فزاز الهارب : عمل فرودودودو .. وطار مثل العصفور . ومن هذه الكلمة يقول الانكليزي : (فلاي fly) بمعنى يطير ، و (فلايت flight) بمعنى الفرار . ولا يمكننا أن نتبين الاصل الصوتي في هاتين الكلمتين الانكليزيتين المحرفتين دون استدلال بالاصل العربي (فر) .. الذي يحكى الصوت الطبيعي ويصوره تصويرا دقيقا ، ومن ثم لا يمكن أن تكون الكلمة الانكليزية flight هي أصل الكلمة العربية (فر) .

الاصوات العربية

وأما الدليل الثاني فهو الاصوات العربية التي لا وجود لها في اللغات الأعجمية ولا سيما الاصوات الحلقية منها . فاذا وجدنا الفاظا مشتركة منشؤها من هذه الاصوات الحلقية الطبيعية ورأينا الأعاجم قد اضطروا الى استبدالها باصوات يقدرون عليها أفلا يدل ذلك على أصلها العربي ؟

كثيرا ما سمعنا الاجانب ينتقدون اللغة العربية لوجود أصوات العين والفين والحاء والخاء والصاد والقاد وغيرها فيها ، مما يجعلها في زعمهم غليظة خشنة يصعب

النطق بها . وفاتهم أن هذه الحروف طبيعية ، أمثالان الطفل في كل بلاد العالم ينطق بها عفوا ، ولكنه حينئذ يكبر لا يجد هذه الاصوات في لغة أهله فيعلمها الى أن تتعطل بالتدرج أعضاء النطق المكلفة بأدائها ، كما تتعطل اليد أو الرجل أو أى عضو يسهل استعماله منذ الصغر .

فلنضرب بعض الامثلة على كيفية نشوء الكلمات من الاصوات العربية الصعبة على غير العرب . لناخذ صوت (الحاء) ، فهو أحد هذه الاصوات الحلقية الطبيعية ، ينبعث تلقائيا عند التنحج فيقول الصغير (أح) لمجرد تنقية حنجرتة دون أن يريد مخاطبة أحد أو التعبير عن شيء . فمن هذا الصوت صاغ العرب فعل (أح) بمعنى سعل ، ثم أصبحت بمرور الزمن (قح) و (كح) وهما صيغتان مندثرتان في العربية الفصحى فيما يظهر ، ولكنها ما زالتا مستعملتين في بعض بلاد الشرق الاوسط . ومن (قح) صاغ العرب الاقدمون فعل (قحف) و(قحب) ومازال المغاربة يقولون (الكحبة) بمعنى السعال ولكننا لا نشك ان الجذر الثنائي الاصيل هو فعل (أح) لانه هو الذي يصور الصوت الطبيعي للسعال . وفعل (قحف) يطالعنا في الانكليزية بصيغة (كف) cough بنفس المعنى . ويقول المعجم الانكليزي ان هذه الصيغة منحذرة من الانكليزية الوسطى التي ورد فيها بصيغة coghen وهذا منتهى علمهم . فهل نستطيع أن نستطيعون ، أن نقول أو يقولوا ، ان cough أو coghen هما الاصل الذي أخذ عنه العرب فعل (قحب) و (قحف) ثم جعلوه (قح) ، ثم أعادوه الى الاصل الطبيعي (أح) ؟ ان البذرة يمكن أن تنمو فتصبح شجرة لها فروع ، ولكن الفروع لا يمكن أن تعود الى شجيرة ثم بذرة .

الطفل العربي

واعرض لكم الآن نموذجا رائعا من ثمار الحفريات اللغوية ، اسمحوا لي هذه المرة أن أعده دليلا قاطعا . وهو فوق ذلك يعود بنا الى أقدم منابع اللغة وربما أجملها أيضا . وسنرى في هذا النموذج كيف تنبت البذرة وتنمو وتورق وتزهو تحت سمعنا وبصرنا . وبعبارة أخرى سنرى بأمر عيننا كيف انبثقت اللغة ونمت .

لقد حان الآن ان ننجز لكم ما وعدناكم به من الحديث عن فضل **الطفل العربي** - الرضيع العربي - على لغات بنى آدم ..

ها هو طفلنا الوليد قد استوفى نصيبه من الرضاع بعد نومة هنيئة ، فشاع في نفسه الجديدة شعور غامر بالسعادة ، فاذا به يرفع عقيرته بالغناء ، كما يفعل الكبار من العرب غالبا في أمثال هذه المناسبات ، ويصيح دون سابق انذار : **غغغغ** .. وكثيرا ما يستخفه الطرب وتطفئ عليه النشوة فيرتقى طبقة أخرى في الغناء ويصيح معلنا رضاه عن الدنيا وعن سير الامور فيها بقوله متحمسا : **لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ** .. وأظننا كلنا قد لحظنا مرارا هذه الاغردة وطربنا لها . وهذا الصوت الحلقي اعنى حرف الغين هنا ، ليس خاصا بالطفل العربي ، بل هو عالمي يترنم به عفويا وفطريا أطفال جميع الشعوب كالذي قلنا أكثر من مرة . وبكلمة أخرى ان الطفل يولد على الفطرة ، عربيا في نطقه .. وأبواه يفرضانه او يؤغرقاته أو يهندانه ..

فلننظر أيها الاخوة والاخوات .. الاصح هنا تقديم ذكر الاخوات على الاخوة لان الموضوع موضوع أطفال من أولى به . نعم ايها الاخوات والاخوة ، ما معنى هذه الظاهرة الانسانية إما قيمتها أو قيمها ؟ انها قبل كل شيء **(كلام)** بالنسبة الى قائلها - الطفل - لانها **(تعبير)** عن شعوره بالوجود وفرحته بالحياة التي أخذ يستطيبها . وهي ثانيا **(لغو)** بالنسبة اليها لا تعبر عن معان محددة كالأغنية القاموسية التي اعتدنا التعبير بها . وهي مع هذا وذاك **(غناء)** .. أول غناء يبدأ به الانسان من تلقاء نفسه بدون تعليم . وهي رابعا **(دعوة)** من هذا الصغير للكبار من الأدميين تبتعث او اصبر **(التعاطف)** الانساني والشعور بالرحمة في نفوسهم ولا سيما نفوس الامهات .

ثم فلننتظر هل ادرك العُرب الاقدمون في تلك العصور الحجرية والعهد الغابرة السحيقة .. هل أدركوا هذه المعاني في **لغلة الطفل** هذه ؟ العجيب أينها الاخوات والاخوة انهم أدركوها كلها ادراكا عميقا ، وعرفوا قيمتها حق العرفان ، وتركوا لنا ذلك واضحا في لغتهم - لغتنا .

أما تقديرا للقيمة **(العيشية)** في هذه اللغلة فقد صاغوا منها أول الامر فعل **(لغا لغوا)** أي قال، الصغير

(لغلغلغلغلخ) . ثم عمت الكلمة فاستعملت للكبار والصفار جميعا بمعنى الهذر والتخليط في الكلام . وليعذرنا انصار **(العيشية)** في الفن الحديث ، فان العرب عدوا ما لا يفهم وما لا معنى له **(لغوا)** .

على أن تسمية لغلة الوليد **(عبثا ولغوا)** أمر عادي لا براعة خاصة فيه . وأما الذي يستحق التسجيل لما فيه من دلالة على عمق الاحساس وسلامة الفهم فهو أن العرب منذ عهدهم البدائي البعيد اذركوا نفسانيا وعقلانيا ما في هذه اللغلة من قيمة كلامية ، فاعتبروها تعبيرا وخطابا من هذا الكائن الجاهل اليكم المهذار ، إذ قالوا **(لغا لغوا)** بمعنى تكلم ، أيضا . ولعلكم تستغربون ذلك . فمن انكر هذا فما عليه الا أن يراجع أقرب معجم عربي من محل الحادثة ، ليسرى أن **(اللغو)** يعني الكلام كما يعنى الهذر والتخليط . ولكن الرغبة في تجنب اللبس أدت الى اعمال أحد المعنيين . وجدير بالتأمل أيضا أنهم من هذا **(اللغو)** بمعناه الخطابى التعبيري صاغوا لفظة **(اللغة)** .

ثم تحور فعل **(لغا لغوا)** فأصبح **(نقى نفوا)** ، ونقى نغيا ، **(أنقى انغا)** - بالنون - بمعنى الكلام أيضا . ثم ان هذه اللغلة من رضيعنا الطروب هي ينبوع الغناء الانساني . وما غغل العرب عن معناها الموسيقى هذا بل قدروه كذلك وقيموه ، ومن ذلك استعملوا **(النغو والنقى والانغا)** بمعنى الغناء أيضا اول الامر وقد بقي في المعجم دليلا على ذلك انهم صاغوا **(النغية والنقوة)** بمعنى **(النغمة)** الحسنة . ثم تطور فعل **(أنقى انغا)** فصار **(غنى غناء)** .

ونأتى الى ما في هذه اللغلة الثمين من قيمة انسانية عاطفية لا يصيد امامها حتى القاسى من القلوب . فمن الذى يلوم قلب الام اذا هو خفق نشوة وذاب رقة عند سماعها ؟ ان الام ما تكاد تسمع هذا الصوت الساحر حتى تقبل على وليدها بكل جوارحها فتجلس اليه وقد هيبت الى مستواه اللغوى ، بل العقلى أيضا . فاذا هو قال لها ضاحكا : **لغلغلغلغلغلغلغل** .. شعرت أن الدنيا لم تعد تسعها من فرط السعادة . فتجيبه على البديهة : **لغلغلغلغلغلغلغل** ..

ويظان على ذلك ، مشتكين في حوار **(عبثي)** ليس له معنى قاموسى ، وفيه كل معاني التخاطب والتعاطف بين أعز انسانيين . وتراهما مستغرقين في الضحك

كانهما يتبادلان التكات والملح في حوار يتجاذبانه من وضع موليين . فهذا اللغو ، أعني تبادل اللغفة و النغفة هو أصل (المناعة) بين الام وحشاشتها ، ايها الاخوات . ينفي الطفل فتناغيه امه ، أي تنفي معه . ومن تطور (المناعة) بين الام ووليدها صيغت كلمة (المناعة) بين الحبيبة وحبيبتها .

أفبعد أن رأينا كيف نشأت هذه الالفاظ التي ذكرنا والكثير غيرها مما لم نذكر لضيق المجال .. أفبعد هذا نستطيع أن نخطيء في معرفة اصلها اذا نحن وجدناها في لغة أو لغات أجنبية ؟ هل يحق لي بعد كل هذا أن أعترض على نفسى مرة أخرى لافند نظريتي ؟

فلنرحل الآن الى اوربا نبحت في لغاتها عن عطايا الطفولة العربية . ها هي كلمة (لغو) العربية بمعناها الكلامي قد صارت في الاغريقية logos بمعنى (الكلمة) . وها هي كلمة (لغة) قد صاغ اللاتين منها كلمة lingua بمعنى اللسان واللغة ايضا . وهي ما زالت كذلك في الايطالية معنى ومبنى . ومنها صيغت langue الفرنسية بمعنى اللسان واللغة ، و langage الفرنسية و language الانكليزية بمعنى اللغة . وقد صاغ اللاتين من (غنى) فعل cano بنفس المعنى ، ومصدره عندهم canere و cantare

وما زال هذا المصدر بنفس المعنى والمبنى في اللغة الايطالية . ومنه صاغ الفرنسيون فعل chanter وعنهم أخذ الانكليز فعل chant بنفس المعنى .

وثمة ما هو أهم من هذا . فلنعد الى logos الاغريقية ، فقد صاغوا منها (لوجيكا) : logica في الاغريقية واللاتينية مما بمعنى (المنطق) ، وهو (لوجيك) : logic logique في الفرنسية والانكليزية . ومن كلمة (اللغة) صاغوا (لوجيا) logia في الاغريقية واللاتينية أيضا بمعنى (الكلام والمكالمة) والحقوها ببعض الاسماء للدلالة على العلم ، وهي تنطق في اللغات الحديثة (لوجي) في مثل biologie و psychologie و geologie و technologie وكلمة (لوجي) : logy logie هذه شائسة الآن في اللغات الاوربية وغير الاوربية . بل اننا نحن العرب نستعملها أحيانا ، مضطرين في بعض الكلمات التي لا نجد لها مقابلا عربيا ، ونحن لا ندرى انها عريقة

في العربية . ولو درينا لتسامحنا معها ، بل لاحتضانها وقبلناها في غرة جبينها بعد اذ اجتمع شملنا بها اليوم . ولئن كانت بعض الكلمات (الملوغة) - أي الموجة ، المنتهية بكلمة logy هجينة نصفها عربي ونصفها أعجمي مثل psychologie فان technologie عربية خالصة النسبة ، لان نصفها الاول (التقن) عربي كالذي قلنا آنفا ونصفها الثاني (لوجي) logy عربي كالذي رأينا توا . ولو ترجنا الكلمة عن الاغريقية ترجمة دقيقة لقلنا (كلام التقن) . وما أحسن التقن اذا تكلم .. كلاما (لوجويا) .. أي منطقيًا .

الفروج العربي

والآن جاء دور الفروج العربي ، الذي وعدناكم بالتحدث عن عبقرته . هو أيضا سيد الفراريج ، أعني من الوجهة اللغوية . انه ككل فراريج الامم يكون حين يفادر بيضته من أجل فراخ الطيور وأقربها الى النفس . وطائما أطربتنا انشودته الجميلة : ص ص ص ص ص ..

فمن نبرة (صي) هذه قال العرب (صاي الفرخ) بمعنى : صوت . وتطورت كلمة (صاي) مع الزمن فصارت (صاء) ، ثم تطورت مرة أخرى فصارت (صات) ، ثم (صاح) ، ثم (صحل) ، ثم (صهل) .. الى آخر ما هنالك .

وعندما نتبع مآثر فروجنا الغالي في اوربا نجد فعل (صوت) قد غدا في اللاتينية sonitum باضافة النون ، و sono بحذف التاء وما بعدها ، بنفس المعنى العربي . وقد تبين لي في كثير من الحالات أن اقحام النون بغير داع في وسط الكلمات المقتبسة من العربية هو عادة نطقية عند بعض الاوربيين . ومن sono هذه اشتقت كلمة (سوناتا) sonata بالمعنى الموسيقى المشهور في اللغات الاوربية وغير الاوربية . وكثيرا ما نستعملها نحن أيضا ، على كره ، لاننا لا نعرف صلة القربى بيننا وبينها ولا نجد في لغتنا كلمة تتناظرها .

ونجد منها في الفرنسية sonde و sondage و sonder و sonner وغير ذلك . أما في الانكليزية فنجد كلمة (الصوت) الفروجية العربية تنطق (ساوند sound) بنفس المعنى . وعنا أيضا

أقحموا النون في الوسط . ولكن توجد في الانكليزية كلمة أخرى بغير نون وهي (شاوت) shout بمعنى (الصوت) العالي ، أى الصياح . كذلك نجد في الانكليزية كلمة squeal بمعنى (الصهيل) .

وقد طال بنا الحديث فلا اريد التوسع في مناقب فروجنا أكثر من هذا . وهو في الحقيقة لا فضل له على غيره من فراريج الله سوى أنه عربي ، أعني ان العرب الذين كان له شرف النسوء بين ظهرائهم هم الذين لحنوا معزوفته الساذجة العذبة (صى صى صى) .. ووهبوا الطاقة التعبيرية والغنى اللغوى . فالفروج العربى كسائر الفراريج يولد على الفطرة أيضا ، أبكم فى تصائيه ، وأصحابه يعربونه فيبدعون من نعمته البسيطة ذات النبرة الواحدة أنواعا مختلفة من الاصوات ، من صياح الانسان .. الى صهيل الحصان .. الى سوناتات فيردى وباخ وشوبان .

تصحيح تسمية

من كل ما تقدم يتضح ان اللغة العربية لغة عربية . ولا يمكن أن تكون الالفة عربية . لا تقولوا لى هذا شأن جميع اللغات ، فهل اللغة الفرنسية مثلا ليست فرنسية ، وهل الانكليزية ليست انكليزية ؟ نعم ان اللغة الفرنسية ليست فرنسية واللغة الانكليزية ليست انكليزية بل كاتاهما كغيرهما من معظم اللغات ان لم نقل كلها ، خليط من لغات أجنبية ومحلية . وهى غير أصيلة . أما اللغة العربية فلغة عربية . العرب هم الذين صنعوها ، فى جزيرتهم العربية نفسها ، وهى الارض المصدرة للعرب والعربية منذ مئة وعشرة قرون على الأقل . ولا يمكن لهذه اللغة أن تكون مستوردة من مكان آخر ، لاننا نراها هنا تصنع من مادتها الطبيعية

الفعل الاولى ، تحت سمعنا وبصرنا ، بانسواء كبارهم وصغارهم .. من أصواتهم فى مختلف حالاتهم ، من قهقهة وغنا . وتمطق وسعال ، وبمناقير فراريجهم ، وفحيج أفاعيهم ، وزقزقة عصافيرهم ، وقعقة وعودهم . هم وحدهم الذين ينطقون بكل هذه الاصوات ، حلقية وغير حلقية . وكل أعجمى اقتبس كلمة من لغتهم اضطر الى تغيير هذه الاصوات ان وجدت فيها . هذه الاصوات نستطيع فيما أظن أن نطلق عليها علميا اسم (الاصوات العربية) . وان كانت بعض الشعوب تستطيع أن تنطق ببعضها ولا سيما من الشعوب المجاورة للعرب فلا توجد أية أمة على وجه الارض غير العرب تستطيع النطق بها كلها .

وإذا كان علماء الاجناس قد قرروا ان الاوربيين كانوا نزحوا فى الاصل من آسيا أو من الهند بالذات مستدلين على ذلك بالتشابه بين اللغات السنسكريتية واللغات الاوربية ، حتى لقد سموها باللغات (الهندية / الاوربية) ، فليس بوسعهم الآن الا أن يأذنبوا لنا ان نستعمل نفس المعيار ونستنتج نفس الاستنتاج فنقول ان الشبه بين العربية والسنسكريتية يمكن أن يكون تفسيره كذلك هجرة العرب على اثر جفاف جزيرتهم الى الهند وغيرها - حيث استقروا واستقرت لغتهم .

وعلى هذا يحق لنا بنفس الاسلوب أن نسمى السنسكريتية باللغة (العربية / الهندية) . وأما اللغات الاوربية التى سموها (الهندية / الاوربية) فلعله قد آن أوان تعديل تسميتها لتطابق واقع التاريخ فيكون اسمها الصحيح منذ اليوم هو اللغات (العربية / الهندية / الاوربية) .

وادرك شهرزاد الصباح .. فسكتت عن الكلام المباح
عبد الحق فاضيل